

تدبر القرآن ووعي معانيه



(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد/ 24). (قَدْ بَيَّـنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا فَتَعْلَمُونَ) (الحديد/ 17). (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَزْرَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَا لَيْلًا أَوْ زَهَّارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس/ 24). (كَتَابُ أَزْرَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص/ 29). إن قضية وعي القرآن وفهمه واستيعاب دلالاته ومعانيه، هي قضية من أهم قضايا التعامل مع القرآن وفهم الرّسالة، وبناء السلوك والحياة وإكتشاف آفاقه ومحتوى أعماقه البعيدة. وعندما يغيب دور العقل، ويسيطر الجمود والتجسّر، وتغلق العقول، فلا يمكن إكتشاف معاني القرآن وفهم محتواه، لذا يذمّ القرآن أولئك الذين وضعوا الأقفال على عقولهم، ولم

يفكِّروا في دلالات الآيات ولم يتدبَّروا معانيها، جاء ذلك في قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا). ومَنْ يستقرئ القرآن، يرى أن خطابه موجّه للعقل، دعوة للتفكير والفهم والوعي.. وإستخدام العقل في فهم القرآن وإكتشاف معانيه.. هو ما حثّ عليه القرآن ودعا إليه في العديد من آياته؛ مثل: (قَدْ بَيَّـنَّا لَكُمْ آيَاتِ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). (الحديد/17). (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَ لِنَـشَآءٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّـسَاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخْضَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَّـزَلًا لَّا يُلَـيْلَ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ). (يونس/24). حين نزل قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْضَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة/ 164). حين نزلت هذه الآية، قرأها رسول الله ﷺ على المسلمين، قال: "ويلٌ لِمَنْ لاَ كَها بَين لَحيه ثمَّ لم يَتَدَبَّرْها". وإذاً، لكي نفهم القرآن، لابدّ من أن نتعامل بالعقل والوعي والتدبُّر، ويُحذَّر القرآن عن قفل العقل وغفلته عمّا حمل هذا الكتاب للناس من حقائق وعلوم ومعارف وهداية وصلاح وتشريع وقيم إنسانية سامية، ويتحدّث القرآن عن غياب التدبُّر والوعي العملي وفهم الدلائل والآيات الطبيعية والحياتية والاجتماعية حتى كأنّ الإنسان لم يرها لأنّه لا يفكِّر فيها، ولا يستوعب الدروس والعبر منها، لذلك يُنذّر القرآن بأولئك المعرضين الغافلين. قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف/ 105). إنّ تلاوة القرآن الكريم من غير تدبُّر ولا وعي، لا تُعطي أهدافها العلميّة والتربوية والإيمانيّة. لنقرأ كلّ آيات تحريم الخمر كوحدة موضوعية ولنتدبّر فيها، ولندرس الأضرار الصحيّة والأمنية والاجتماعية والمالية... إلخ، لنعرف لماذا حرّم الله الخمر. لنقرأ كلّ آيات الرِّبَا في وحدتها الموضوعية ولنتدبّر فيها؛ ولندرس الآيات المدمِّرة للرِّبَا وإنعكاساتها على الإقتصاد والحياة المعاشيّة، ولنعرف لماذا حرّم الله الرِّبَا. لنقرأ كلّ الآيات التي تحدّثت عن المال كوحدة موضوعية، لنعرف فلسفة المال وقيمة المال، وكيف نحصل على المال، وكيف ننفعه، ولنعي أخطار تجميد المال واكتنازه وأخطار الفقر والحرمان على الحياة بأسرها الاجتماعية والسياسية

والسلوكية والأمنية.. لنقرأ كل الآيات التي تحدّثت عن الإسراف والتبذير، ونتأمّل في أخطارها وأضرارها، لنذكر الحكمة من التحريم.. لنقرأ كل الآيات التي تحدّثت عن المرأة والزواج والأسرة والعلاقة الزوجية بوعي وتحليل وفهم، ولنعرّف مكانة المرأة وأهمية الأسرة وحقوق الزوج والأبناء، ولنعي الحكمة في كل تشريع ومفهوم ثبّته القرآن في هذا المجال. لنقرأ الآيات التي تحدّثت عن صفات الأسماء الحُسنى.. ولنعي تجلّياتها في الشريعة وفي تعامل الخالق مع الخلق وعلاقة المخلوقات بخالقها من خلال وعي دلالات تلك الصفات والأسماء الحُسنى.. لنعرّف أنفسنا نتعامل مع ربٍّ غفورٍ رحيم، عادل حكيم ودودٍ عليم، قادر على ما يُريد. عدوّ للظلم والظالمين، منتقم من الطاغاة، فيتحدّد موقفنا من الظلم والإستكبار والطغيان ونتعامل مع الخلق بالعفو والرحمة والدفاع عن المظلومين والمستضعفين. وهكذا نتعامل مع كلّ آية وكلّ مجموعة من الآيات التي تحدّثت عن موضوع موحّد، ولعني مجمل التنزيل وأهداف القرآن ومشروعه المنقذ الرائد على هذه الأرض. فيما يلي نستعرض أمثلة من تدبّر القرآن العقلي ووعيه وإستنتاج الأحكام والمفاهيم والقيم منه، كما وردت في بيان الرسول الكريم محمد (ص) وأئمة المسلمين. رُوِيَ عنه (ص) قوله: "إنّ" [1] - عزّ وجلّ - كتبَ عليكم الإحسان في كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليريح ذبيحته" [1]. إنّ الرسول الكريم (ص) بقوله هذا ينهي عن الإيذاء والتعذيب والإساءة حتى في قتل المستحق للقتل وفي الحروب أو ذبح الحيوان، فإنّ ذلك مخالف لخُلُق الرحمة والإحسان التي جاء بها القرآن.. إنّ هذا البيان النبوي الكريم هو بيان لما جاء في كتاب الله تعالى من الدعوة إلى مطلق الإحسان، مثل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...) (النحل/ 90). ومثل خطابه تعالى للنبي موسى (ع): (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) (الأعراف/ 145). وهذا البيان هو دعوة للتدبّر في كتاب الله وتوجيه العقل وتحريكه للتعامل مع القرآن، وإستنتاج الأحكام والمفاهيم وإستنباطها من أعماق محتواه وإرشادات دلالاته. وعلى هذا المنهج جرى أئمّة أهل البيت (ع) في فهم القرآن والأخذ منه، فإنّهم يؤكّدون دوماً أنّ ما يفتون به هو صادر من كتاب الله وسنة نبيّنا الكريم محمد (ص). روى أبان بن تغلب، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، أنّّه قال: "قال: سمعتُ علي بن الحسين (ع) وهو يقول لغلمانهِ: لا تذبحوا حتى يطلع الفجر، فإنّ الله عزّ وجلّ جعل الليل سكناً لكل شيء، قال: قلت جُعِلَ فداك؟ فإن خفت؟ قال: إن كنت تخاف الموت [2] فاذبح" [3]. وهكذا يسير الإمامان الصادق وزين العابدين (ع) في بيان هذا الحكم، وهو النهي عن ذبح الحيوان ليلاً إلّا إذا خيفَ عليه من الموت،

[1]- مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص 124. [2]- يعني موت الذبيحة. [3]- الحرّ العاملي، وسائل الشريعة، ج 14، ص 41. [4]- الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الرعد، الآية